شعرية النسر
في الخطاب الشعري
المعاصر شعرية النسر والتقاليد
الجمالية الكلاسيكية

obeikandl.com

obeikandl.com

ولانعدم هذا التصور فى شعرنا العربى المعاصر أيضا بخصوص انتقال النسر من نص الأسطورة الساعية إلى حلم الخلاص والانطلاق إلى أسطورة النص، وقد وجدا ذلك لدى الشاعر احمد شوقى فى نصه عن النسر الذى كتبه فى أول طيار مصرى يركب الطائرة .

يقول شوقى فى قصيدته :(النسر المصرى):-

أعقاب فـــي عنـــان الجـــولاح أم سحاب فر من هوج الريـــاح؟
أم بساط الريح ردتـــه النـــوى بعد ما طوف في الدهر وساح
أوكأن البـــرج ألقـــى حوتـــه فترامى في السماوات الفســـاح
أقبلت من بعد تحســـبه نحلـــة عنـــت وطنـــت فـــي البـــراح
يا سلاح العصر بشـــرنا بـــه كل عصـــر بكمـــي وســـلاح
إن عزا لم يظلـــل فـــي غـــد بجناحيك ذليـــل مستبـــاح
فتـــــكاثروتألف فيلقـــــا تعصم السلم وتعلـــو للـــكفاح
مصر للطير جميعـــا مســـرح مالنـــا فيـــه ذنـــابى أوجنـــاح
رب ســـرب قـــاطع مـــر بـــه هبط الأرض مليـــا واســـتراح
لـــم لايفـــتن فتيـــان الحمـــى ذلك الإقدام أوذاك الطمـــاح ؟
من فتى حـــل مـــن الجـــوبهم فتـــــلقوه علـــى هـــام وراح
إنـــه أول عصـــفور لهـــم هزفي الجو جناحيـــه وصـــاح
دبـــت الهمـــة فيـــه ومشـــت عزمات منك يا حرب صحاح
ناطح الـــنجم فتـــى علمـــته في حياة حرة كـــيف النطـــاح
لك في الأجيال تمثـــال مشـــى وجدوا الرشد عليه والصـــلاح
جاوزالنيـــل وعبريـــه إلـــى أكم الشـــام وهاتيـــك البطـــاح

فارس الجوسلام فـــي الـــذرى وعلى الماء ومن كل النـــواح
ثب إلى النجم وزاحـــم ركنـــه وامتلئ مـــن خـــيلاء ومـــراح
إن هـــذا الفـــتح لاعهـــد بـــه لضفاف النيل من عهـــد فتـــاح
تلك أبواب الســـماء انفتحـــت ماوراء الباب يا طير النجـــاح ؟
أسماء النيـــــل أيضـــا حـــرم من طريق الهند أم جومبـــاح ؟
عين شمس ملئت من موكـــب كان للأبطال أحيانـــا يتـــاح[٧٤]

النسر هنا رمز خارجى تظل المسافة بعيدة بينه وبين بنية النص ، الرمز يراه الشعر من الخارج، لم ينضج الرمز بعد ليتحرك من باطن النص إلى خارجه، لكن شوقيا وفى للتقاليد الكلاسيكية التى ترى الشعر محاكاة للواقع المحيط به، القصيدة صوت العقل الحكيم الذى يستشهد بالنسر ويحكى عنه موروثه الثقافى فى السؤدد والعزة ، يتجلى ذلك فى صورة النسر رمز الطائرة فهو سلاح العصر، وملاذ العزة فى عالم لا عزة فيه إلا للقوى ، إن فروسية الشاعر القديم انتقلت لدى شوقى من شجاعة الأرض ممثلة فى قوة السيف إلى شجاعة السماء ممثلة فى صورة النسر الطائر ، استبدل الشعر الكلاسيكى فارس الصحراء بفارس السماء ، مازال مديح الفارس هو الغالب على النص الكلاسيكى ، لكن الفروسية تنتقل هذه المرة من قوة البدن إلى قوة العلم ، لازالت الفروسية خارجية نراها فى فارس الذرى الذى يثب إلى النجم ، ويسمو للذرى لكن شوقى يحكى رحلة النسر وكأنه طرفة يحكى عن ناقته القديمة ، يظل النسر متقلبا فى صور تشبيهية فى صورة العقاب الذى لاح معتليا الأفق البعيد ، أو صورة السحابة الحرة التى تناوىء هوج الرياح، أو صورة بساط الريح السحرية التى تعلو كل عقبة ، وتخترق كل السدود والحدود، مازال النص ينمو بعيدا عن مكوناته الداخلية، وتمر حركة الرمز الأسطورى مرورا وثائقيا وكأنه متن أسطورى ينظمه شوقى فى

موازاة القصيدة، إن الحلم بالطيران هنا يظل ممارسا خارج أشكال الخيال فى النص، وينفصل الحلم عن بنى النص الداخلية، ولا يأخذ الشعر من الإمكانات الجمالية والمعرفية الكامنة فى رمز النسر من الخفة والحركة والحرية والسمو سوى مداراته الخارجية الشكلية، وإذا كان شوقى يفخر بالنسر رمز القوة والحضارة، فإن سعيد فياض يفخر بالنسر الشهيد رمز الفارس المعاصر فى قران واضح بين عقاب الجو وفارس الذرى شبيه السحاب الطليق لدى شوقى، وبين نسر الشهادة لدى سعيد فياض فى صورة شهاب الأمانى، والرياح الطليقة التى تزرع الأفق بالمضاء والسنا والوضاءة العلوية، دائما الرمز فى النص الكلاسيكى خارج القصيدة، يقول سعيد فياض عن النسر الشهيد الصريع:

أيهاالنسر، ياشهاب الأماني ... من سنى ومضها، يذر الضياء
لا تخف جلبة الرياح إذا ... ماجن فيها الردى ، وثار العداء
واذرع الأفق.. ماحملت من ... العزم شعاعا أذيب فيه المضاء
إن قلبا حملته يعشق المجد ... تلاشت أمامه الأرزاء
وجناحا مددته يزرع الجو ... خضوعا إن هزه كبرياء
ينشران السلام فوق ربوع ... قبلتها في ثغرها العلياء
حاولت حطمها الأكف ... الأثيمات وودت لو أنها قفراء
وتمنى لو أنها البلقع اليبس ... عدوأخف منه الداء !
..أيها النسر، ياطويل الجناحين ... أتدري من نحن والأعداء ؟
نحن قوم ، نرى الفضيلة دينا ... وعلينا من ومضها لألاء
ونرى في العهود ديناً، وفي ... الصدق شعارا أطل منه الوفاء[٧٥]

النص هنا يقدم معلومات عن النسر ولا يخلق لنا عالما جماليا موازيا من الإيحاء المتعدد ، والترامى الرمزى المتقلب بين الأزمنة والأمكنة،والتصورات والرؤى.بل يقرر تقريرا عقليا يتطابق والعالم الإشارى للغة فى الواقع الحرفى ، إن رمزية النسر هنا رمزية معجمية لاتكاد تتجاوز الرمز الإشاري المباشر للغة إلا قليلا.

إن الإنسان باستمرار يلتجىء إلى المنابع الخصيبة الأولى حين يلتمس المدد والسند ، وهو يجأ إليها بطريقة شعورية ولا شعورية معا، وربما كان اللاشعور هو الحادى النافذ البصيرة نحو الخلاص دائما، إذا يكون منبعا للخلاص الفائق للعادة وهو يمتلك قدرات أسطورية تفوق حدود البشر وتخترق قيود الزمان والمكان،كما يبسط مددا مترامیا للاستشراف والعلو والتسامى، ومن هنا كان لجوء الشعر إلى نسر الأسطورة كعودة إلى حلم قديم بالطيران والتجاوز والانتصار على العقبات والسدود، وقد جسد الشعر هذه الأحلام على المستوى الفردى والجمعى معا، ففى قضية فلسطين يقول الشاعر على هاشم رشيد فى قصيدته(النسر الجريح):

"... في زحمة الأقدار... وفي غضبة "
" الإعصار ... تهاوى من ذراه... "
" جريحا.. ضعيفا .. إلى السفوح .. "

قم انشر جناحيك... أطلقهما وهاك الوجود، وعرض السما
إلام تظل مهيض الجناح تخبط في اليأس ، مستسلما ؟
ويعروك.. في كل حين ذهول ويقضي عليك الأسى والظمأ
تحامل وطرفي سماء الخلود وجاوز إلى حقك الأنجما
أليست عشاشك ، مهد الطموح ألست لها العاشق المغرما ؟
ألم تك بالأمس.. أمس القريب لديها المعزز والمكرما ؟

فماذا جرى كيف شاء الزمـــان بـــأن تســـتباح وأن تحرمـــا ؟
وماذا على الأرض غير النفـــاق وغير الكذاب وغير العمـــى ؟
خـــداع يـــراوغ فـــي ذلـــــة وزيـــف تأصـــل واســـتحكما
تحامل وطرفي الفضـــاء الرحيـــب فـــإن مـــن العـــار أن تحجمـــا
إذالم تطرأنت .. من ذا يطير؟ ومنن ذا يحلق فوق الحمـــى ؟
أمافيك مـــن نخـــوة للوثـــوب تهزبهـــا النـــوم والنومـــا؟
أليس مـــن العـــارأن تســـتذل وأن تســـترق وأن تهزمـــا ؟
أليس من العـــارموت النســـور على الأرض لا فىعنان السما؟
تحامل،وغلغل، وراء الخطوب وأطلق جناحيك .. أطلقهمـــا[٧٦]

يقيم الشعر هنا مفارقة متعددة السياقات الجمالية والمعرفية ، بين الهبوط والتردى والإفاقة والصعود من خلال بنية النص نفسه، بين حقول هيض الجناح وأفق اليأس والاستسلام وأرض الكذاب والعمى والاستباحة، وحقول: الفضاء الرحيب والنخوة والوثوب وعنان السما، ولكن الشاعر يبنى قصيدته بناء تراكميا مباشرا يلتزم المحاكاة المادين الواقعين بين حياة الواقع فى الأسطورة وحياة الشعر فى بينة النص ، وكاننا أمام موازة وثائقية بين عالم الأسطورة وعالم الشعر، إن الشعر يستحث النسر إلى الوثوب من نثرية السفوح إلى شعرية القمم، مستعيدا قممه الغائبة التى اضطر من بعدها إلى العيش فى تقزم السفوح، ومن هنا فإن على هاشم رشيد لم يتجاوز شوقى كثيرا بل لازال الشعر لديه سابحا فى أفق المحاكاة الكلاسيكية الجديدة، نرى هذا التصور الشعرى أيضا لدى الشاعر الفلسطينى يوسف الخطيب فى قصيدته (أسطورة النسر والخفاش)) حيث يربط الشعر ربطا مباشرا بين جراح الأمة العربية ممثلة فى فلسطين المهيضة وبطلها الشهيد عدنان المالكى وبين جراح النسر الملقى على السفوح والذى يحثه الشاعر إلى النهوض ثانية يقول الشاعر :

صاحبي،إن تملأ الكأس دموعا فهـى حسـبي ... فى بـلادى خـدر يعقـد أوصـال النيـام
لم يعدفي الناي أفـراح أغنيهـا لشـعبي ... في بلادي لم تزل تأوي خفافيش الظلام
كل أحزان الثكالى نابضات مـلء قلبـي ... عبر كهف الليل تختال علىكل حطـام
ولقد مزقت آمالي علـى أشـواك دربـي ... ..فجرنا في رحـم الـدهرتلوألف عـام
وجعلت الصمت والنسـيان والعزلـة دأبـي ... وغدا يولد طفل الشمس في حضـن الشـام

ذلك النسرالذي لا ينكرالنجم طماحه

أدر الخمرة يـا سـاقي علـى كـل حـزين ... ممعنا ، يوغل في الجو فما يخشى رياحـه
من ينـابيع الأسـى طافحـة مـلء العيـون ... ذلك النسرالذى أرخى على السـهم جناحـه
ادرالـذكرعلى الأكبـاد ياسـاقى الحنـين ... بعدأن خلف في الأرض وفي الجو مناحـة
كي ترانا في لهيب الحزن ، في نـار الأنـين ... ضمدوايا إخوتي في ساحة الثـأر جراحـه
نتلظـى ، كلنـا ينضـح بالثأرالـدفين ... هكذا تروى عن العـرب أسـاطيرالبطولة:

عاشق أغمض عينيه على رؤياجميله

ياليـالي أمتي،قرحـت بـالآلام جفنـي: ... كان يشتاق لهـاعبر لياليـه الطويلـة
لم أزل في معبد الأشـباح اسـتلهم فنـي ... وهب القلب لها والسيف والروح النبيلة
ولكم سمرت فى أوثانـه الشـوهاء عينـي! ... لم يكن يروي ، سوى الوحـدة والثأر،غليلـه
ياليالي أمتي،في مزهـري آخـر لحـن ... احزني يافاعلى من كان يشـتاق إليـك
فى غد يروى على الأجيال أسطورة حزن ... آملاأن يبـذل المهجـة مـا بـين يـديك
.. كان فى القمة نسريدرك النجم عـلاء ... حيث يجلو دولة القرصان والشذاذ عنـك
عربـى الـنفس نـبلا وسـموا وإبـاء ... فى خميس عربى يسـحب الفجرعليـك
جـامح فـي ملعـب الاريـاح، يرتادالسـماء ... أحزنى من لوعة الذكرى وخلي القـدس تبكـي
فى مدى عينيه تلقى عالمـا رحبـا مضـاء ... أيها الراحل فى عمق النوى ، مازلت حيـا
وجناحاه،كمـا يتشـح الملـك رداء ... مائلا فينا، كأن الغدرمانالك شـيا

إن فى عينيك من إيماضة الخلد ثريا

وهو من عليائـه يلـق علـى الغابـة ظلـه ... لم تزل بسماتك البيض، ومـا زال المحيـا

حائماعبرالمدى. تـــأتلق الأفـــلاك حولـــه مشـــرقا، يطفـــح إيماناوعزماعربيـــا
فى رواء تخجـــل الاســـاد إلا أن تجلـــه لو ترانا في وداع النعش أطيافا غريبـــة
كان يرعى قمة شامخة الرأس مطلـــة أوجها مشدوهة ناطقة الصمت كئيبـــة
قمة شـــماء،منها ينبـــع النيـــل ودجلـــه لوترى وجناتهم تنهل بالدمع خضيبه

كنت أشفقت على الأحياء من هول المصيبة

ذات يـــــوم ريعـــــت القمـــــة بالنسرالمصـــــاب ..ويح نفسي ، فى عباب اليـأس أطلقـت شـراعي
ودع الأيـــــام فـــــي نيســـــان،فى عمرالشـــــباب غارقافي الصمت، فى النسيان فى عمـق الضـياع
فـــإذا الغابـــة نهـــب للأفـــاعي والـــذئاب ثم قادتني رياح البعث للشط المضـــاع
والخفافيش التي تسكن دومـــا فـــي الخـــراب قسما، كفرت عن إثمي،وقدست صـــراعي
أخذت من بعده تدعو لتتـــويج الغـــراب أنا إن لم آخذ الثأرغدا شلت ذراعـــي

إن من مهزلـــة الـــدنيا ، ومـــن ظلـــم الزمـــان
صولة النذل علـــى مـــن ســـاجل الـــدنيا طعـــان
هكـــــــذاأخبث ماتصـــــــطنع الغدريـــــــدان
هكـــــذا،لايطعن الظهرســـــوى نـــــذل جبـــــان
إن عـــــين النســـــر والخفـــــاش لا تلتقيـــــان[٧٧]

إننا نجد هنا أيضا ذات المفارقة الشعرية بين حقلى الظلمة والنور، الظلمة ممثلة فى السفوح والخفافيش، والنور ممثلا فى النسور والآفاق المترامية للحرية، لكن يشير الشعر هنا ولا يجسد، يحاكى ولا يخلق، وكأن الأسطورة لم تنزاح عن عوالمها الأسطورية الخام إلى عوالم الشعر المتحولة، لقد انتقل الحلم الحضارى لدى شوقى بخلق نسر النهضة والطيران فى عوالم التقدم الحضارى ، إلى خلق نسر الانتصار لدى الشاعرين الفلسطينيين على هاشم رشيد ويوسف الخطيب .